صفحات ونفحات
من الحياة الروحية المحمدية

بقلم : الدكتور محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

هذه هى الصفحة الاولى من الصفحات التى يتألف منها تاريخ الحياة الروحية فى الاسلام • وليس من شك فى أنها أزهى هذه الصفحات وأروعها ، كما أن ما يأرج بين أعطافها من نفحات هو أصفى هذه النفحات وأمتعها • وليس من شك أيضا فى أن ما جاء بعدها من الصفحات التى خلفها السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين ، ومن الزهاد والعباد والنساك والبكائين ، ومن الصوفية والمتصوفة وغيرهم ومن المعنيين بأمر الدين ، لم يكن فى حقيقته الا ترديدا لما امتلأت به الصفحة الاولى من الاسرار الالهية ، والا تجديدا لما فاضت به من الانوار الروحية • ولست أعنى بتلك الصفحة الاولى غير صفحة الحياة الروحية المحمدية التى أجرى الله بألفاظها وعباراتها أكرم يد ، وأنطق بحقائقها وتالقها أصدق لسان ، وملأ بمعارفها ولطائفه أنور قلب ، فكانت بهذا كله ، كما كانت حياة صاحبها عليه الصلاة والسلام ، المورد الاحلى ، والمنهل الاصفى ، لكل من أراد أن يحيى ، وأراد أن يظفر بالسعادة وحسن العقبى •

ولصفحة الحياة الروحية المحمدية وجهان : وجه قبل البعثة النبوية ، ووجه بعدها ، وهى بوجهها الاول تعد مطلع فجر جديد فى تاريخ الحياة الاسلامية بصفة خاصة ، وهى بوجهها الثانى تعد استمرارا لذلك اللحن الروحى الرائع الذى بدأ يرتله محمد عليه الصلاة والسلام ، لاول مرة فى تاريخ الاسلام ، وجعل يردده معه ومن بعده المسلمون ، ذلك الترتيل الجميل الذى يهز النفوس ، ويملأ القلوب ، ويملك العقول ، ويمحو ظلمة الشك ، وضلالة الشرك ، وغشاوة المادية بما يشعه ويشيعه فى النفوس والقلوب والعقول جميعا من نور اليقين ، وهدى الوجدانية ، واشراق الروحانية • والوجه الاول من هذين الوجهين هو الذى أحب أن أكشف عنه فى هذا الحديث ، على أن أقف عند الوجه الثانى فى حديث مقبل •

ولعل أول ما يلاحظه المتأمل فى الحياة الروحية المحمدية قبل البعثة هو

تلك الخلوة التى أحبها محمد حتى لم يكن شىء أحب اليه من أن يخلو الى نفسه ، فى ذلك التحنث الذى كان يأخذ به نفسه فى غار حراء ، وما فتىء كذلك حتى صفت نفسه صفاء جعلها وجعل من صاحبها أهلا لما أنزل عليه من الوحى ، وما كلف به من الرسالة العظمى ، والدعوة الكبرى .

فهنالك فى حراء ، ذلك الغار الذى كان يعتكف محمد به متحنثا أو متحنفا على ملة ابراهيم عليه السلام ، وكان يعكف على نفسه يروضها ويجاهدها ، ويصفيها وينقيها ، ويباعد بينها وبين الحياة المادية وضجيج وعجيج المعنين فيها ، وانه ليأخذ نفسه بهذا التحنث كلما أقبل شهر رمضان من كل عام ، يعتزل الناس ، ويتزود بالقليل من الزاد ، ويتصفح نفسه وقلبه ، ويتأمل الكون الذى يعيش فيه ، ويتدبر الكائنات التى تحيط به ، ويروى فى بديع السموات والارض ، وفى كل ما خلق الله من شىء . هنالك كان يحيا محمد حياة روحية خالصة ، لا يفسدها عليه ما فى الحياة المادية من نزوات الحس ، وشهوات النفس ، ونوازع الهوى ، ودوافع الشيطان ، وأعراض الجاه ، وزخارف السلطان . وهكذا ظل محمد على هذه الحال من رياضة نفسه ومجاهدة حسه ، يقضى أيام رمضان ولياليه حتى اذا بلغ من التحنث مأربه عاد وقد انجاب عن عين قلبه الحجاب ، وفتح له من دون الحق والحقيقة كل باب ، واذا بأول ما أكرمه الله به من آيات النبوة الرؤيا الصادقة بحيث لم يكن يرى فى نومه رؤيا الا جاءت كفلق الصبح ، واذا به فى حياته الروحية هذه وقد أشرقت بأنوارها جوارحه وجوانحه ، يمعن فى الحق والخير واليقين بقدر ما يمعن غيره من المتعلقين بأسباب الحياة المادية فى الباطل والشر والشك .

ولقد كانت هذه الحياة الروحية الخالصة التى كان يحياها محمد عليه الصلاة والسلام ارهاصا لنبوته وتمهيدا لرسالته وسبيلا الى أن يهبط عليه الملك بأولى آيات القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وذلك على نحو ما نتبينه من كتب السيرة العطرة التى يكفى أن نقف منها عند الصورة الرائعة التى يعرضها ابن اسحاق ، وذلك اذ يروى فيقول : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فاذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به الكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع الى بيته ، حتى اذا كان الشهر الذى أراد

الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حراء كما كان يخرج لجواره ، ومعه أهله ، حتى اذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى » . وليس هذا الذى يصوره ابن اسحق من الحياة الروحية المحمدية هو كل ما لهذه الحياة من روحانية رائعة ،، وانما هناك ما هو أروع وأمعن فى الروحانية وأفعل فى الروحانية وأفعل فى تاريخ الحياة الروحية الانسانية من ناحية ، وفى تاريخ الحياة الروحية الاسلامية من ناحية أخرى ، ذلك هو نزول جبريل على محمد عليه الصلاة والسلام ، هذا النزول الذى لا نجد فى وصفه وتصويره خيرا مما تحدث عنه صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، وذلك اذ يقول : « ... ... فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال : اقرأ ، قال : قلت : ما أقرأ : قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قال : قلت : ما أقرأ ، قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قال : فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك الا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . قال : فقرأتها ، ثم انتهى فانصرف عنى ، وهببت من نومى فكأنما كتب فى قلبى كتابا . قال : فخرجت حتى اذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل ... ... »

وهكذا كانت قراءة محمد عليه الصلاة والسلام لتلك الآيات البينات من القرآن خاتمة عهد وفاتحة عهد ، أو هى نهاية صفحة وبداية صفحة من تلك الصفحات ، الفياضة بأروع النفحات ، المشرقة بأسطع اللمعات ، التى يتألف منها سجل الحياة الروحية الاسلامية ، ويتردد بين أسطرها أسمى المعانى وأرقى المثل مما تقوم عليه وتتقوم به الحياة النفسية والخلقية والروحية للافراد والجماعات .

على أن قيمة هذه الصفحة الاولى ، وقيمة الوجه الاول من وجهها بنوع خاص ليست فيما تشعه الالفاظ من اشراقات فحسب ولا فيما تشعه العبارات من نفحات فحسب ، ولا فيما تحث عليه وتدعو اليه من المثل الاعلى

والقدوة الحسنة فحسب ، وانما هى فى هذا كله ، وفى شىء آخر ليس أقل خطرا من هذا كله : ذلك بأنها كما كانت المنبع الفياض بأرقى قواعد السلوك ، وأسمى مبادىء الخلق ، وأشرف ألوان المعارف واللطائف ، فهى كذلك المصدر الاول الذى استقى منه الزهاد الاولون ، والصوفية المتقدمون والمتأخرون ، العناصر العلمية والعملية التى هى قوام ما نعرفه بين العلوم الاسلامية باسم التصوف الاسلامى ، وهو الاسم الجامع لطوائف الزهاد والعباد ، ولأحوال أولئك وأعمالهم ، ولعلوم هؤلاء ومعارفهم . وهذا يعنى بعبارة أوضح وأصرح أن تحنث محمد عليه الصلاة والسلام فى غار حراء ، وما استتبعه ذلك التحنث من زهد وتقشف ، ومن تأمل وتفكر ، ومن عكوف على تصفية النفس واعتكاف عن الخلق ، ومن جلاء البصيرة ، وصفاء السريرة ، ومن افاضة الرؤيا الصادقة على قلبه ، واختصاص بهبوط الملك عليه من ربه ، انما كان كل أولئك بمثابة البذور الروحية الاولى التى نبتت أول ما نبتت فى قلب الزاهد الصوفى المسلم الاول ، ثم ألقيت بعد ذلك فى قلوب الصحابة والتابعين وأتباع التابعين ، ثم فى قلوب الزهاد والعباد والنساك والصوفية فى الاولين والآخرين ، فاذا هى تزكو وتنمو ، وتينع وتترعرع ، وتاتى أكلها رياضات ومجاهدات ، وأذواقا ومشاهدات ، وأشواقا ونفحات ، وكلها صور جديدة لتلك الصفحة الاولى التى خطتها يد محمد متحنثا على نحو ما رأينا ، ثم زادت عليها ، وأضافت اليها يد محمد نبينا على نحو ما سنرى .

واذا كان ذلك كذلك فما أجدر الذين يدرسون تاريخ الحياة الروحية الاسلامية بصفة عامة ، وتاريخ التصوف الاسلامى بصفة خاصة ، من المستشرقين وغير المستشرقين من المقلدين الذين يسرفون وينحرفون ، اذ يزعمون أن التصوف الاسلامى برياضاته ومجاهداته العملية ، وبأذواقه ومواجيده الروحية ، انما جاء الى المسلمين من مصادر أجنبية عن الاسلام ، أقول ما أجدر أولئك وهؤلاء أن يرجعوا الى هذه الصفحة الاولى من حياة نبى الاسلام ليتبين لهم أنها الحق ، وأن الباطل ما يزعمون ، وأن الحياة الروحية المحمدية التى تصورها هذه الصفحة المشرقة ، انما هى أول ما ينبغى أن يقف عنده الباحث المحقق المنزه عن التعصب والتكلف والتعسف ، لكى يلتمس منا مطلع الفجر ومشرق النور .

محمد مصطفى حلمى